المنهج الجدلي في علم الاجتماع

بقلم احمد القصير

ـ ١ ـ

النظرية الاجتماعية عند ماركس

١ ـ مدخل :

اذا كانت افكار ماركس ونظرياته الاجتماعية قد ساهمت وبشكل فعال في تطوير العلوم الاجتماعية وارساء دعائمها ، فان هذه النظريات ظلت لفترة من الزمن في عزلة عن الشكل الذي تطورت به هذه العلوم في معظم جامعات العالم ، كما ان الجامعات المصرية تفاقلت عن جوانب معينة وهامة من تراث الفكر الاجتماعي . ولهذا ظلت النظرية الاجتماعية عند ماركس غامضة مبهمة . فالروابط الثقافية بين جامعاتنا والجامعات الاجنبية في مجال العلوم الانسانية قد سارت حتى الان في اتجاه واحد ـ اتجاه الغرب . ومن هنا لم تتح فرصة التعرف على النظرية الاجتماعية عند ماركس الا وهي متأثرة بشكل ما بالاتجاهات الغربية . ومن الغريب ان بعض الاتجاهات التي تعترف في الغرب بمدى تاثير ماركس على علم الاجتماع لا تجد في مصر الصدى الذي يعبر عنها كما يجب . وعلى سبيل المثال نجد بوتيمور يقول : « ولعل ما يبرر اتجاه ماركس الانتقادي نحو موضوع علم الاجتماع كما فهمه أوجست كونت ان علم المجتمع عند ماركس يرتبط باهتمامات علم الاجتماع الحالي اكثر من ارتباطه بتلك النظرية التي اطلقت عليه هذا الاسم ، اي نظرية كونت وهذا ما يؤكده رايت ميلز عندما يقول : اذا كان علماء الاجتماع يدرسون تفاصيل وحدات اجتماعية فان ماركس يدرس نفس هذه التفاصيل ولكن على مستوى بناء المجتمع في مجموعه ، واذا كان علماء الاجتماع الذين لا يعرفون من التاريخ الا القليل يدرسون الاتجاهات قصيرة المدى ، فان ماركس يتناول الحقبة باكملها باعتبارها وحدة الدراسة مستخدما في ذلك المواد التاريخية بقدرة خلابة » . (١)

ولا تكمن المصاعب امام الباحث في الموقف الذي تتخذه جامعاتنا من فكر ماركس فقط . فهناك سبب يرجع الى طبيعته الماركسية ذاتها. فالنظرية الماركسية متعددة الجوانب ويصعب فهم اي جزء منها اذا اخذ على حدة .

ويزداد الامر صعوبة اذا اراد الباحث ان يتعرف على فكر ماركس في مجال نوعي محدد مثل علم الاجتماع . كما أن استيعاب هذه النظرية جيدا يقتضي معرفة ما وصلت اليه العلوم الاجتماعية قبل ماركس ، وما هي حلقة الصلة بين ماركس وانجلزوما قدمه العلماء والمفكرون في عصرهما .

لقد اخذت المناهج المستخدمة في دراسة الظواهر الاجتماعية تتقدم وتتطور في اتجاه التخلص من الاساليب غير العلمية والآراء المسبقة . ويجمع معظم علماء الاجتماع حول اوجه القصور التي لازمت تلك المناهج عندما اخذت تسير نحو النضج في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كما انهم الان .. يتفقون حول بعض الادوات التي تستخدم في الدراسة والبحث . بيد اننا لا نستطيع ان نقول ان القضايا المنهجية الاساسية في علم الاجتماع قد اصبحت تلاقي اتفاق علماء الاجتماع . فلا تزال المؤلفات الجامعية في بلادنا ـ على سبيل المثال ـ تتخذ موقفا يتسم بالتعصب من المنهج الماركسي في علم الاجتماع بل وتعرضه بشكل غير موضوعي . ونستطيع ان نقول انها تنظر لهذا المنهج نظرة ذات جانب واحد . كما نلاحظ ان هناك مؤلفات (٢) في علم الاجتماع في بلادنا تتجنب حتى الاشارة الى ماركس ومنهجه ، وكأن تاريخ العلم يتوقف على اهواء البعض .

ان البحث العلمي يتطلب ان نعرض قواعد المنهج الماركسي ونستوعبه وقفا للصياغات التي وضعها مؤسسوه ، وبالكيفية التي استخدموها في ابحاثهم ودراستهم وعلينا ان نبتعد عن التصورات الذاتية التي تضعها حوله بعض المؤلفات في بلادنا أو في الخارج .

ان معظم هذه التصورات الذاتية تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية:

الاول : يحاول ان يصف المنهج الماركسي بانه يخضع لاعتبارات تعسفية ويتصف بالقدرية ، وأن قواعده عبارة عن مبادىء متعصبة تخضع لعقيدة تفسر التطور لافكار مسبقة . وهم بهذا ينكرون ان .. الماركسية تقدم منهجا للبحث في مجال العلوم الاجتماعية .

ذلك هو الاتجاه الاول .

أما منطق اصحابه فاننا نجده على النحو التالي :

« والمنطق الجدلي الذي تستعين به الماركسية منطق مذهبي يحكم عليها اطار العقيدة المتزمته ، وهو ليس منطقا منهجيا موضوعيا يتخذ نقطة البداية من الظواهر ويعين على استخلاص خصائصها بالدراسة

---

(١) Bottomore and Maximelien (eds) , KARL MARX, Selected Writltings in, Sociology and Social Philosophy (Rubel, Belican Book, 1963), P. 45.

(٢) مثال ذلك : حسن شحاته سعفان ، اسس علم الاجتماع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

الموضوعية المستندة الى الاحصاء الدقيق والمقارنة السليمة . هنا نرى الماركسية تبغي بكل وسيلة ان تضع الظواهر جميعها في اطار جدلها المحكم وتفرض علينا الحقيقة التي تزعم انها تصل اليها » . (١)

أما الاتجاه الثاني فيتمثل في محاولة التوفيق بين الماديةالتاريخية وبعض الاتجاهات المدرسيه في علم الاجتماع .

ويقول بعض اصحاب هذا الاتجاه ان المادية التاريخية ليست جزءا متكاملا من النظرية الماركسية . بل قد يقولون بان المفهوم المادي للتاريخ عبارة عن اساليب مجردة لتسجيل وقياس الظواهر الاجتماعية في استقلال عن الايديولوجية والنفوذ الطبقي (٢) .

ويقدم اصحاب هذا الاتجاه آراءهم كما يلي :

أ) « نستطيع ان ندافع عن ماركس من ناحية اخرى أسيء فهمه فيها . فلقد اطلق كثيرا على تفسيره الاقتصادي للتاريخ اسم «التفسير المادي للتاريخ » ولقد اطلق ماركس نفسه هذا الاسم عليه احيانا ... ولكنني لا أرى اي معنى فيها . فلم تكن فلسفة ماركس اكثر مادية من فلسفة هيجل . ولم تكن نظريته عن التاريخ اكثر مادية من اي محاولة اخرى للبحث في العملية التاريخية بالوسائل التي يوفرها العلم الاختباري والتجريبي .. » (٣)

ب) « يسمى منهج ماركس عادة بالمادية التاريخية، وهذا فيه خداع الى الحد الذي ينسب لماركس مقصدا فلسفيا لم يكن لديه . فان ماركس لم يكن مهتما لا بالمشكلة الاثنولوجية للعلاقة بين الفكر والوجود ولا بقضايا نظرية المعرفة . فان فلسفة تأملية من هذا النوع كانت هي التي رفضها ماركس ليضع العلم مكان الميتافزيقا في مجال جديد للمعرفة » (٤)

اما الاتجاه الثالث لتلك التصورات الخاطئة عن المنهج الماركسي فيتضح في محاولة للقول بانه « حتمية اقتصادية » (٥) او يفسر التطور وفقا لعامل واحد .

وعلينا ان نرى الان ما اذا كانت هذه التصورات تتفق مع مبادىء المنهج الماركسي ام لا . وفي هذا الصدد يمكن ان نضع الاعتبارات التالية :

١) يحاول بعضها ان يغفل اي قيمة منهجية لاعمال ماركس في مجال العلوم الاجتماعية . أما البعض الاخر (بوتومور مثلا) فيقرر ان ماركس افاد العلم برفضه الفلسفة التأملية . ولكنه بينما يقول ذلك نجد ان الجزء الاول من الفقرة لا يعبر عن فهم سليم للمادية التاريخية . فقضية العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي كانت من القضايا التي حدد حولها ماركس رأيا حاسما .

٢) نجد ان هذه التصورات لا تتمسك بالمصطلحات التي صاغها ماركس وانجلز عن منهجهما . فقد حرصا على توضيح ما تعنيه تلك الاصطلاحات وابعاد اي شبهة خلط بينها وبين اي مصطلحات اخرى . وعلى سبيل المثال نجد ان انجلز يتعرض لهذا الموضوع بالتفصيل في مؤلفاته : « لود فيج فيورباج ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ، و « الرد على دوهرنج » . كما ان ماركس مثلا لم يطلق على نفسه مطلقا انه مادي اقتصادي .

٣ ـ انهم لا يلاحظون ـ في حالة توفر حسن النية ـ ان ماركس الاقتصادي البارز والفيلسوف والمؤرخ وصاحب النظريات السياسية الاجتماعية ، لا يمكن لاي جانب من اعماله ، اذا اخذ على حدة ـ او حتى اذا اخذت جميعاعماله ببساطة فيمجموعها ـ فانه لا يوضح اصالة فكره واعماله . ولان السمة الرئيسية والجوهرية لفكره هي علم الاجتماع : اي تكامل المظاهر الجزئية للواقع الاجتماعي في اطارات كلية تجد تفسيرها في البحث القائم على التحديد التاريخي والتحليل الهيكلي . فان الجدل عنده لم يكن سوى وسيلة الى علم اجتماع يرفض العقائدية ، ويبدو ذلك على وجه الخصوص في ازالته للتعارض الزائف بين الفرد والمجتمع » (٦)

٤) ان بعض من يضعون تصورات ذاتية عن الماركسية بانكارهم انها لا تقدم منهجا للبحث لا يدركون « ان المادية في التاريخ هي الاخرى لم تدّع انها تفسر كل شيء ، وانما تشير فقط الى المنهج العلمي الوحيد في تفسير التاريخ حسب تعبير ماركس في رأس المال » . (٧)

كما يشير لينين ايضا الى محاولة ميخالوفسكي عالم الاجتماع الروسي ان يكون لبقا « حينما يشوه ماركس بان ينسب الى المادية في التاريخ مزاعم سخيفة : « تفسر كل شيء » و « تجد حلولا لكل القضايا التاريخية » . وهي مزاعم دحضها ماركس على الفور وباسلوب لاذع في خطاب له حول مقالات ميخالوفسكي ((٨) التي نسب فيها هذه المزاعم الى ماركس . وقد ارسل ماركس هذا الخطاب الى هيئة تحرير جريدة « مفكرات هامة » في روسيا في نهاية ١٨٧٧ .

٥) تغفل بعض الانتقادات التي توجه الى المنهج الماركسي الاختلافات بين هيجل والماركسية بل قد تلغيها .. فهي تزعم ان التفسيرات التي يقدمها ماركس تقوم على الجدل الهيجلي ، واذا كان هذا الزعم لا يتضح صراحة في الفقرة التي نقلناها آنفا عن شومبيتر ، فانه لن يعوزنا البحث عن هذه الصراحة في بعض المؤلفات عن علم الاجتماع :

« مما يؤخذ على آراء ماركس انها قامت على طريقة هيجل الجدلية لان هذه الطريقة صحيحة من ناحية المنطق وما وراء الطبيعة ولكن تطبيقها العملي لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والاساءة الى التاريخ ، وعندما نعرض حوادث التاريخ نرى انها لا تطابق تمام المطابقة الاسلوب الجدلي الذي يقول به هيجل . كما ان اخضاع التغير لعامل واحد يقضي بتجاهل الكثير من العوامل » (٩)

ان اول ما نلاحظه في هذه الفقرة ان اصحابها يتحدثون عن ماركس وينتقدونه ويستخدمون حجة ان سير التاريخ لا يطابق « الاسلوب الجدلي الذي يقول به هيجل » فكيف ناخذ ماركس بجريرة هيجل . اليس الاسلوب الجدلي عند ماركس يختلف عن الجدل عند هيجل كلية ، كما ان استخدامه يختلف هو الاخر ؟

ربما ان اصحاب هذا الرأي قد تأثروا بالزعم القائل ان ماركس

---

(١) محمد فتحي الشنيطي ، الفلسفة الماركسية (اصولها وتطبيقاتها الاجتماعية) دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

(2) Glezerman, The laws of Soial Development, Foreign Publishing House, Moscow, P. 12.

(٣) جوزيف شومبير ، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية (الجزء الاول) تعريب خيري حماد ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ٣٥

(4) Bottomore, and Maxmelien (eds) KARL MARX, Selected Writtings in Sociology and Social Philosophy, Rubel, Pelican Book, 1963, P. 36 OP, Cit, P. 36.

(5) Maciver and Page, Society, Macmillan and CO-LTD, London 1950. P. 563.

(6) Gurvich, Traité re Sociologie, Presses Unversitaires de France, Paris, 1962, P. 37.

(7) Lenin, Collected works, V. I, Moscow, 1963, P. 146. P. 146.

(8) Ibid. P. 165.

(٩) عبد الباسط محمد حسن واخرون ، اصول علم الاجتماع ، مطبعة لجنة البيان العربي ص ٢٣١ .

يفسر كل شيء باستخدام المقولة الثلاثية الهيجليـــة الشهيـــرة «Hegelian triads» والتي مؤداها ان كل موضوع Theses يحتوي على نقيضه .. Anti- theses وان الصراع بينهما يؤدي الى ظهور مركب الموضوع .. Syntheses ، ووفقا لرأي انجلز ولينين، فان هذا الزعم هو تشويه وتحريف لمنهج ماركس . فقد شرح انجلز في « الرد على دوهرنج » كيف ان ماركس لم يحلم مطلقا بان « يبرهن » اي شيء باستخدام الثلاثية الهيجلية ، ولم يفعل ماركس شيئا سوى ان درس وبحث العمليات الواقعية ، وان المعيار الوحيد لنظريته هو مدى تطابقها مع الواقع (١) ثم يتعرض انجلز للدور الذي يلعبـــه في النفي عند ماركس فيقول ان ماركس وضع استنتاجاته النهائية التـــي استخلصها من البحث التاريخي والاقتصادي حول التراكم الاولي لرأس المال ، وبعد ذلك قام ماركس بايضاح ان الاسلوب الرأسمالي للانتاج يخلق الظروف المادية التي ستمحوه وان هذه عملية تاريخية . واذا كانت تتفق في نفس الوقت مع الديالكتيك فان ذلك ليس خطأ ماركس. فان ماركس بعد ان برهن افتراضاته استنادا الى التاريخ ـ وبعد ذلك فقط ـ اضاف ان ذلك يحدث وفقا لقانون جدلي معين .

كما ان لينين يهاجم علماء الاجتماع الذين يزعمون ان « اساس النظريات السوسيولوجية عند الماديين (الماركسيين) يقوم على الثلاثية الهيجلية ... فعندما يقرأ ميخالوفسكي الكتابات الماركسية يصـادف باستمرار اشارات الى المنهج الجدلي في العلم الاجتماعي والى التفكير الجدلي في مجال القضايا الاجتماعية ، وما الى ذلك . وبسبـــب بساطة قلبه ـ وسيكون حسنا لو كان الامر مجرد بساطة ـ يفتـرض جدلا ان هذا المنهج يعني حل القضايا السوسيولوجية وفقا لقوانين الثلاثية الهيجلية ... ان كل من يقرأ تعريف وشرح المنهج الجدلي ، الذي قدمه انجلز في الرد على دوهرنج وفي الاشتراكية الخياليـــة والعملية او ما قدمه ماركس (تعليقات مختلفة حول رأس المال ، ثم في مقدمة الطبعة الثانية وفي « بؤس الفلسفة ») سوف يرى ان الثلاثية الهيجلية لم تتم الاشارة اليها مطلقا . (٢)

ان التصور السليم الذي علينا ان نضعه للمنهج الجدلي يجـب ان يكون صادرا عن فهم ينبع عن اصوله ، وبضع اعتبارا لاعمال اصحابه فلا يمكن ان نتجاهل مثلا كلمات انجلز في رسالته الى كونرادشيدت في ١٥ اغسطس ١٨٩٠ والتي قال فيها : « ولكن نظريتنا في التاريـــخ هي قبل كل شيء مرشد للدرس وليست اداة بناء وفقا لاسلـــوب الهيجليين . (٣)

لقد قال انجلز هذه الكلمات وهو يتعرض لاولئك الذين لديهم افكار ساذجة عن المادية ويتصورون انهم باطلاق كلمة مادي على اي شيء يستغنون عن الدراسة والبحث .

٦ ـ اما حول ادعاء ان النظرية المادية لماركس وانجلز تغفل جميع العوامل ما عدا العامل المادي فان انجلز رد ايضا هذا التحريف بقوله : « تنظر النظرية المادية في تعيين مجرى التاريخ واحداثه ولـــم يقل كلانا ـ ماركس وانا ـ شيئا اكثر من هذا . فاذا قـام احـــد بتحوير دعوانا الى القول بان العنصر الاقتصادي هو الوحيد الـذي يعين سير التاريخ ، فانه بعمله هذا يجعل من نظريتنا عبارة عديمـة المعنى ، مجردة ، وسخيفة .

ويستطرد انجلز موضحا ان المركز الاقتصادي هو الاساس ولكـن العناصر المتنوعة التي يتكون منها الصرح العلوي كالاشكال السياسية التي يتخذها نضال الطبقات وما يترتب عليه من نتائج ، واشكـــال القانون ، وحتى الصور الذهنية التي تعكسها هذه العوامل في اذهان الناس والمحاربين كالنظريات السياسية والدينية والافكار ، هـــذه جميعها لها اثرها في مجرى نواحي الصراع التاريخي ، بل وفي كثير من الاحيان تكون لها الغلبة . هناك علاقة متبادلة بين كافة هذه العناصر وفي النهاية نجد ان الحركة الاقتصادية هـــي العنصر الضروري والجوهري .

ان ماركس وانجلز لم يعلنا تمسكهما بهذا الرأي فحسب بل طبقاه في ابحاثهما . ومن ابرز اعمال ماركس التي اوضح فيها مدى تشابك هذه العوامل ومدى تاثير العوامل غير الاقتصادية كتاب « الثامن عشر من برومير ، لويس بونابرت » . ولا بد ان نقول ان هذا الكتاب وضع عام ١٨٥٢ اي بعد صدور البيان الشيوعي بحوالي اربع سنـــوات . واهمية ذلك هي ان البعض يرى ، ومنهم جورج جريفيتش ـ ويتردد صدى هذه الرؤية في مصر ـ ان ماركس الشاب ، او الماركسية قبل البيان الشيوعي (٤) هي التي تضع اعتبارا لكل العوامـــل وليس العامل الاقتصادي وحده . ان ماركس يوضح في ذلك الكتاب مـدى تاثير التقاليد والمثل القديمة في الاحداث بل وفي الثورات . وعلى سبيل المثال فان الناس وهم يصنعون تاريخهم لا يستطيعون التخلص من تاثير تقاليد الاجيال الماضية . وعندما ينشغل هؤلاء الناس فـــي تغيير الاشياء المحيطة بهم وخلق شيء جديد ، عند ذلك بالضبط وفي فترات الازمات الثورية نراهم يلجأون في وجل الى استحضار أرواح الماضي لتخدم مقاصدهم ويستعيرون منها الاسماء والشعارات القتالية. وهكذا ارتدى لوثر قناع بولس الرسول واكتست ثورة ١٧٨٩ ـ ١٨١٤ بثوب الجمهورية الرومانية تارة وثوب الامبراطورية الرومانية تارة اخرى فقد كان بعث الموتى في تلك الثورات يؤدي مهمة تمجيد الصراعـــات الجديدة .

٢ ـ النظرية المادية واهميتها لعلم الاجتماع

قام ماركس وانجلز بانتقاد اساليب البحث السابقة عليها وكذلك التفسيرات التي تقدم حول قضايا التطور الاجتماعي ، واعلنا ان تلك الاساليب غير قادرة على تقديم اساس سليم للنظرية الاجتماعية .

فكل النظريات ومناهج البحث كان يشوبها هدف مثالي وتسعى الى حقيقة ابدية قائمة على تصورات مسبقة . ولم يشذ عن ذلك حتى ماديمو القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر ، وان كان بعضهـــم اقترب كما قال انجلز من الفكرة التي توصل اليها ماركس عن نقطـــة البدء في فهم وتفسير الظاهرة الاجتماعية .

فحينما كشف ماركس النظرية المادية في تفسير التاريخ كان تيرى ومينيه وجيزو وجميع المؤرخين الانجليز حتى ١٨٥٠ ، قد قدمـــوا البرهان على انهم كانوا يسعون الى تحقيق هذا الكشف (٥) .

كما ان هيجل رغم عبقريته وصياغته لقوانين الجدل قد انتهـى الى نظام او مذهب ، حيث يسير التاريخ صوب هدف مثالي منذ الازل كالفكرة المطلقة . وبهذا يظهر الطابع اليقيني في نظام هيجل وهو طابع يخالف طريقته الجدلية التي تهدم مذهب اليقين ذاته (٦) .

ـ التتمة على الصفحة ٥٣ ـ

---

(١) انجلز ، الرد على دوهرنج ، الجزء الاول : الفلسفة ، الفصـل الثالث عشر ـ الديالكتيك ـ نفي النفي .

(2) Lenin, OP. Cit, P, 165

(٣) التفسير الاشتراكي للتاريخ ـ مقتطفات من انجلز ـ ترجمة راشد البراوي دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ (ص ١٢٧) .

(٤) رسالة انجلز الى يوسف بلوخ في ٢١ سبتمبر ١٨٩٠ (المرجع السابق) ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٥) رسالة انجلز الى ستار كينبرج في ٢٥ يناير ١٨٩٤ (التفسيـر الاشتراكي للتاريخ) ترجمة راشد البراوي ، ص ١٣٨ .

(٦) انجلز ، لودفيج فيورباخ ، (التفسير الاشتراكي للتاريـخ) ، ترجمة راشد البراوي ، ص ٣٢ ـ ٣٤ .

المنهج الجدلي في عالم الاجتماع

تابع المنشور على الصفحة ١٢

وينتقد انجلز فكرة هيجل التي ترى ان الحركة الجدلية في الطبيعة والمجتمع ، اي العلاقة المتداخلة العلمية في حركة التقدم من الادنى الى الاعلى ، والتي تبدو خلال كافة الحركات الحلزونية ونواحي التوقف المؤقتة ، ليست الا صورة او نسخة للحركة الذاتية التي تقوم بها الفكرة منذ الازل ومستقلة عن اي انسان مفكر وان كنا لا نعرف اين توجد . وكان لا بد من القضاء على هذه المذهبية المقلوبة الوضع .

بمثل هذا النقد توصل ماركس وانجلز الى ادراك الافكار وفقا للنظرية المادية . وكانت نقطة البداية في ابتعادهما عن انصار هيجل تمثل في مؤلفهما « الحوليات الالمانية الفرنسية لعام ١٨٤٤ » German French Year- books, 1844,

وقد اشتمل هذا المجلد على مؤلفي ماركس « مساهمة في نقد فلسفة الحق لهيجل و « حول المسألة اليهودية » ، ومؤلفي انجلز « الوضع في انجلترا » و « مختصر لنقد الاقتصاد السياسي » الذي كتبه قبل ان يلتقي بماركس ، وفي انتقاد ماركس لفلسفة الحق عند هيجل اعلن ان التحول الاجتماعي لا يمكن تفسيره بوعي الناس وانما بتحليل العلاقات الاجتماعية .

ثم اعلن في المخطوطات الاقتصادية ـ الفلسفية (١٨٤٤) ان العمل ، اي الانتاج المادي ، لعب دورا حاسما في ظهور وتطور البشرية غير ان العمل قام في نفس الوقت الذي طور فيه الانسان باستعباده. وهنا يظهر مفهوم ماركس عن « الاغتراب » كظاهرة اجتماعية غير ان الاصطلاحات التي استخدمها في هذا المؤلف كانت تبين تأثره بفيورباخ.

اما الصياغة العامة والتحول الكامل في افكار ماركس وانجلز فيظهران في « العائلة المقدسة » ....The Holly Fomily و «الايدبولوجية الالمانية (٤٥ ـ ٤٦) The German Ideology

ويمثل كتاب الايدبولوجية الالمانية حسب كلمات ماركس في مقدمة كتابه مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (١٨٥٩) واستقرار فكرهما كما به صياغة للمفهوم المادي للتاريخ الذي استمرا يعمقانه في بقية المؤلفات .

وفي مؤلف انجلز « الرد على دوهرنج » ، والذي قرأ ماركس مخطوطته قبل ان ترسل للناشر ، يستعرض انجلز بشكل تفصيلي عدة قضايا هامة :

١ ـ اشكال القصور في اساليب البحث السابقة عليهما .

٢ ـ المبررات التاريخية لذلك العجز .

٣ ـ المهمة التي كان على النظرة المادية في التاريخ ان تنجزها في مجال الدراسات الاجتماعية .

٤ ـ الاسس الاساسية للنظرية الاجتماعية التي لا غنى عنها للمنهج في دراسة المجتمع .

وحول النقطة الاولى والثانية نجد ان انجلز يتحدث على هذا النحو :

« عندما ننظر الى الاشياء ، في الطبيعة أو تاريخ البشرية ، او نشاطنا الذهني ، فان الصورة الاولى التي تخطر لنا تتكون من علاقات وتفاعلات متشابكة الى اقصى حد ، لا يبقى منها اي شيء كما هو او في الوضع الذي عليه بل ان كل شيء يتحرك ، يولد ، ويتحول ، وينفى. ان هذا المفهوم البسيط عن العالم ، والذي يعتبر صحيحا في حد ذاته كان هو نفس مفهوم الفلسفة اليونانية القديمة ، والذي صاغه لاول مرة هرقليطس : كل شيء موجود وغير موجود ايضا ، لان كل شيء يجري ، كل شيء في تغير مستمر في صيرورة وانتهاء دائمين . غير ان هذا المفهوم الذي ينطبق بشكل صحيح على السمة العامة لصورة الظواهر في مجموعها ، لا يستطيع ان يفسر التفاصيل التي تتكون منها هذه الصورة ، وطالما لم نفهم هذه التفاصيل فلن تكون لدينا فكرة واضحة عن الصورة في مجموعها .

ولفهم هذه التفاصيل علينا ان ننتزعها من روابطها الطبيعية والتاريخية ونفحص كلا منها وندرسه على حدة ، وفقا لطبيعتها واسباب وجودها ومؤثراتها وما الى ذلك » (١) .

ويستطرد انجلز قائلا ان الاسلوب الميتافيزيقي في التفكير ينشأ او يبدأ من نفس انجازات المناهج العلميه في التفكير . ويبين كيف تأثرت الفلسفات الاجتماعية بذلك . فهو يقول :

« ان تحليل الطبيعة الى الاجزاء المكونة لها ، وتجميع العمليات والموضوعات الطبيعية المختلفة في فئات محددة ، ودراسة التكوين الداخلي للاجسام العضوية في اشكالها المتنوعة ـ كانت هذه هي الشروط الاساسية للوثبات الجبارة في مجال معرفتنا بالطبيعة والتي تحققت خلال الاربعة قرون الماضية .

« ولكن هذا المنهج في البحث أورثنا عادة ملاحظة الموضوعات والعمليات وهي في عزلتها ، وهي منتزعة من مجموع الروابط المتبادلة للاشياء ، ومن ثم النظر اليها في ثباتها وليس في حركتها ، النظر اليها كاشياء ثابته لا كاشياء متغيرة في اساسها ، النظر اليها في خمودها لا في حياتها .

« وحين قام بيكون ولوك بنقل هذه النظرية للاشياء في ميدان العلم الطبيعي الى الفلسفة ولدا اسلوب التفكير الميتافيزيقي الضيق الذي يميز القرن الماضي » (٢)

كما يضيف انجلز الى ذلك بان ذلك التصور في البحث يرجع لظروف تاريخية (٣) حيث كان عليهم ان يفحصوا الاشياء قبل امكان فحص العمليات كان البحث يتم عن ماهية الشيء قبل ملاحظة ما يجري له من تغيرات . ولهذا كانت مهمة فلسفة التاريخ تنحصر في احلال العلاقات المتداخلة التي يصوغها عقل الفيلسوف محل العلاقات التي تبرزها الاحداث .

ولذا اصبح من الضروري القضاء على هذه العلاقات المفتعلة التي صاغها الذهن . وبكون القضاء عليها عن طريق كشف العلاقات الحقيقية ومعنى هذا العمل في النهاية كشف القوانين المتعلقة بالحركة وهي القوانين التي تحكم تاريخ المجتمع الانساني .

ان مهمة النظرية الماركسية تنحصر في انجاز هذا الواجب . فدور النظرية المادية في مجال المجتمع الانساني حسب كلمات احد مؤسسيها هو ما يلي :

« هذه النظرية تضع حدا للفلسفة في ميدان التاريخ كما وضعت النظرية الديالكتيكية في الطبيعة نهاية للفلسفة الطبيعية كلها وجعلتها غير ذات ضرورة ومستحيلة . لم يعد الامر عبارة عن اختراع علاقات متداخلة من ادمغتنا ، بل اصبحت المسألة عبارة عن كشف هذه العلاقة من الحقائق . اما الفلسفة التي ابعدت من نطاق الطبيعة والتاريخ فلم يتبق امامها سوى الفكر الخالص : نظرية قوانين عملية الفكر ذاتها ، اي المنطق والديالكتيك » (٤)

ان الماركسية بتحديدها لاوجه القصور في اساليب البحث والمهمة التي عليها ان تقوم بها قد اوجدت مدخلا لدراسة المجتمع . وقد ساهم هذا المدخل في ان يحسم ماركس وانجلز ثلاث قضايا تعتبر اساسية بالنسبة للنظرية السوسيولوجية :

١ ـ ان الواقع الاجتماعي هو مصدر معرفتنا ، بمعنى ان الوجود الاجتماعي هو أساس الوعي الاجتماعي .

٢ ـ تأكيد فكرة النسبية في مجال العلوم الاجتماعية ، وان هناك وحدة جدلية بين النسبي والمطلق .

٣ ـ ان معيار صدق المعرفة هو التجربة العملية،وان هناك ارتباطا

(1) Engels, Amti- Diihring, Moscow, 1955, P, 32.

(2) Ibid, P, 34.

(٣) انجلز ، لودفيج فيورباخ ، من ٦٦ ـ ٧٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٤ .

وتأثيرا متبادلا بين النظرية والعمل .

الاهمية المنهجية لهذه القضايا :

١ ـ ان حل قضية الوعي الاجتماعي على النحو الذي طرحه ماركس قدم اساسا منهجيا جديدا للدراسات السوسيولوجية . فقد حدد مجال الدراسة لعلم الاجتماع بالاضافة الى ايجاد مدخل منهجي للدراسة فعندما يقول ماركس اننا يجب ان نبحث عن نشأة الافكار في الحياة الاجتماعية المادية فانه بذلك يوجه الانظار الى مادة البحث السوسيولوجي الواقعية بدلا من وضع افتراضات عقلية تفسر بها الحياة الاجتماعية .

وعلى سبيل المثال ، فقد انتقد برودون لانه يضع الافكار اساسا للمجتمع ، ولذلك يضطر الى اختراع افتراض العقل الكلي . وما أسهل ان نخترع عبارات مفرغة المعنى . ولكن « ما هو المجتمع ايا كان شكله؟ انه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس » (١) .

في هذه الكلمات يحدد ماركس اصل ومنشأ التكوينات الاجتماعية بما في ذلك من افكار وتصورات . ويستطرد في نفس الرسالة قائلا ان برودون « لم يفهم ابدا ان الناس الذين ينتجون علاقاتهم الاجتماعية وفقا لمستوى انتاجيتهم ينتجون الافكار والمقولات ، اي التعبير الفكري المجرد لنفس هذه العلاقات الاجتماعية . ومن ثم فان هذه المقولات ليست اكثر خلودا مما تعبر عنه من علاقات . انها منتجات تاريخية ومؤقتة . ولكن على نقيض ذلك يرى برودون ان التجريدات والمقولات هي العلة الاولى ، وانها ـ وليس الناس ـ هي التي تصنع التاريخ »(٢)

ان المقولات والافكار على هذا النحو ، اي مستقلة عن النشاط ونشاطهم المادي ، تعتبر بالطبع خالدة وأبدية ولا تتغير ، ويرفض ماركس ذلك ، لان التسليم به يعني الاقرار بعدم التطور ، والكف عن البحث والدراسة . فطالما ان المقولات ، هي في نظره القوة المحركة ، فليس من الضروري تغيير الحياة العملية اذا اردنا تغيير الافكار وانما العكس .

٢ ـ كان الفكر الاجتماعي مرتبطا في البداية ـ كما ذكرنا ـ بالغائية . لذلك كان التصور ان هناك كيانا واحدا للمجتمع . وعلى سبيل المثال فان القوانين الطبيعية تبعا لمفهوم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي تتطلب قيام نظام الملكية الفردية والمنافسة الحرة ، وان هذا النظام ابدي . كما عبرت فلسفة التاريخ عن هذا التصور ايضا ، حيث تتصور ان النمو البشري يجري في اتجاه واحد مستمر وكأنه يتجه نحو هدف مسبق . وحتى اولئك الذين تعتبرهم كثير من الجامعات افضل من ساهموا في ارساء وتثبيت علم الاجتماع لم يستطيعوا أن يتخلصوا من مثل ذلك الفهم الخاطىء . فان القسم الانسانية عند اوجست كونت نظل بلا تغيير خلال التقدم (٣) . وحتى دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) هو الاخر اكد ان المجتمع يسير نحو تحقيق فكرة التضامن العضوي (٤) .

غير انه كان هناك في نفس الوقت اتجاه يسير نحو اقرار فكرة قابلية النظم الاجتماعية للتغير . وساعد على ذلك تقدم علم التاريخ والانثوغرافيا وظهور افكار داروين .

وقد افاد علم الاجتماع من تأكيد هيجل فكرة ان التناقض هو اساس كل حياة وكل حرية . فبغض النظر عن المثالية التي غلفت الجدل عنده فانه مهد الطريق لتحرر العقل من خرافة الثابت . ثم اخذت فكرة النسبية دفعة اخرى على يد انصار سان سيمون عندما أكدوا ان الملكية ظاهرة اجتماعية تخضع مثل الظواهر الاجتماعية الاخرى لقانون التقدم .

« ويمكن القول ان الماركسية بصفة خاصة هي الخطوة الحاسمة في هذا التغير نحو النسبية . فقد اعلن ماركس نفسه ، عندما اخذ في مراجعة نقد فلسفة القانون لهيجل ، أنه اخذ يفكر بان العلاقات القانونية والاشكال السياسية لا يمكن ادراكها بذاتها ، ولا يمكن ان تفسر بالتقدم العام المزعوم للعقل البشري .

« وفي هذه النقطة ، يبدو لماركس قصور فيورباخ وهيجل ، فكما ان جدل هيجل كان لا بد له ، على حد عبارته الشهيرة ، وأن يعاد النظر فيه ليقف على قدميه ، فان النزعة الانسانية عند فيورباخ لا تنبعث فيها الحياة الا اذا استعانت بالتاريخ . ويعترض ماركس قائلا :

« أن الكائن البشري ليس تجريدا مرتبطا بالفرد المنعزل ، بل هو في حقيقته عبارة عن مجموع العلاقات الاجتماعية ، ويمكن تلخيص خطأ فيورباخ في انه صرف النظر عن مجرى التطور التاريخي وافترض مقدما وجود فرد انساني منعزل . وعلى هذا النحو ينكر ، أن الفرد المجرد الذي يقوم بتحليله ينتمي في الحقيقة الى صورة مجتمع معين » (٥)

كما نجد هذه النظرة النسبية في مؤلفات انجلز . فهو يقول مثلا في « لودفيج فيورباخ » :

« ليس هناك شيء نهائي ، ولا مطلق ، ولا مقدس ، بالنسبة للفلسفة الجدلية . انها تكشف عن الطابع الانتقالي لكل شيء وفي اي شيء » . (٦) .

غير ان تأكيد المنهج الجدلي لفكرة النسبية لا يعني انه يضع النسبي مقابل المطلق . فادراك النسبية لا يحدث بمعنى انكار الحقيقة الموضوعية وانما بمعنى ان حدود اقتراب معرفتنا من هذه الحقيقة خاضعة لظروف تاريخية .

ويقرر لينين استنادا الى مؤلف انجلز « الرد على دوهرنج » انه رغم المكانة التي تضعها الماركسية للنسبية فلا يمكن ان تجعل منها الاساس في المعرفة فذلك معناه انكار لاي مقياس موضوعي او الواقع المستقل عن وعي الانسان والذي تعتبر معرفتنا تقريبا له . فان اقتراب معرفتنا من الحقيقة الموضوعية المطلقة مشروطة تاريخيا وتحكمها ظروف تاريخية ، غير ان وجود تلك الحقيقة غير خاضع لشرط » (٧) .

ويعني لينين انه ما دامت معرفتنا ليست الا تقريبات للواقع فهي تكون نسبية دوما ، غير انها بقدر ما تمثل التقريب الفعلي للواقع الموضوعي الموجود مستقلا عن وعينا ، تكون دوما مطلقه ، فان الصيغة النسبية والمطلقة للحقيقة تشكل وحدة جدلية غير قابلة للقسمة .

(٣) العلاقة بين النظرية والتطبيق :

يعتقد بعض علماء الاجتماع ان تقدم العلم والتخلص من الاتجاهات الفلسفية الغائية وفلسفة التاريخ يعني اغفال الجانب النظري والفصل بين النظرية والعمل . ويرى كوفيليه انه يستحيل (٨) وضع مثل هذه التفرقة بصفة مطلقة ، لها عن طيب خاطر ، بانها حركية في اساسها ، وبين « المعرفة » التي يمكن بل يجب ان تبقى نظرية خالصة لتلك الحقيقة . أليست هذه التفرقة التي حدثت عندما اتضح ان الانتقال من وجهة النظر المعيارية الى الوضعية كان احدى المراحل الضرورية لكوين علم الاجتماع كعلم ؟

وبعد ان يعرض كوفيليه هذه الحجة ، يقول ان وراء هذا

---

(١) Marx to P. V. Annenkov, Desember 28, 1846. (Poverty of Philosophy, Moscow, 1966, P-156

(2) I bid, P. 166.

(3) Gurvich, op-cit, P. 42.

(4) Ibid, P. 48.

(٥) ارمان كوفيله ، مقدمة في علم الاجتماع ، ترجمة السيد محمد بدوي وعباس احمد الشربيني ، دار المعارف ، ص ٢٠ ـ ٢١

(٦) نقلها لينين في كتابه « مصادر الماركسية » عن مؤلف انجلز « لودفيج فيورباخ » .

(7) Lenin, Materialism and Emprio - Criticism (Collected Works, V. 14, Moscow, 1962. PP; 136 - 137.)

(٨) ارمان كوفيليه ، المرجع ذاته ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

الاعتراض عالما من الاوهام .

فاولا : يرى « لاهى » ... احد علماء النفس التكنولوجي ان العلوم تنشأ عن ابتكارات يحققها الانسان في الميدان العملي ، ومن هذه الطرق العملية ، وبفضل المناهج التي تسير اكثر فاكثر نحو الكمال تتولد النظرية ، ثم عن طريق الحركة الجدلية يظهر العلم ، فالعلم اذن ليس هو النظرية الخالصة ، ولا مجرد التطبيق العملي ، ولكنه مركب من العمل الموجه بالنظرية ومن النظري الذي لا ينفك يزداد ثراء بالعمل .

وثانيا : فان المعرفة التي يعطينا اياها علم الاجتماع عن التطور البشري تؤثر على الفكرة ذاتها التي يمكن ان تكونها عن العلم الوضعي وان اية صورة من صور الفكر لا بد ان تكون دائما نتاجا تاريخيا لظروف اجتماعية محددة .

وثالثا : ليس « هناك اشد معارضة لعلم الاجتماع ، في رأينا من ذلك الادعاء لعالم الاجتماع الذي ينصب نفسه « شاهدا » فحسب ، ويتجرد على هذا النحو من التاريخ بطريقة ما ، ذلك ان عالم الاجتماع هو بالضرورة انسان من عصر معين وبيئة معينة ، لا يستطيع ان يعيش كآلهة أبيقور فيما بين العوالم ، وفضلا عن ذلك فان تاريخ علم الاجتماع ذاته يثبت ذلك بصورة كافية . حقيقة ان الماركسية وحدها هي التي اكدت في جلاء ذلك التضامن الوثيق بين كل نظري وكل عملي ، لدرجة انه خلال المناقشة التي حدثت عام ١٩٠٢ ، في الجمعية الفرنسية للفلسفة اعتقد جورج سورل (G. Sorel ...) انه يستطيع عن طريق هذا التضامن ان يعرف المادية التاريخية » (١) .

ونعتقد ان الاراء التي توصل اليها كوفيليه ، خاصة ما نقله عن « لاهى » يمثل اتجاه المنهج الماركسي ، حيث تعتبر النظرية مرشدا للعمل ، وحيث تعتبر الممارسة العملية طريق اختبار النظرية . فماركس يرى ان ربط النظرية بالعمل هو ضمان حمايتها من التحريف والتصاقها بالاوهام . فان « الحياة الاجتماعية هي من ناحية الجوهر عملية . وكل الاسرار التي تحرف النظرية نحو الصوفية تجد حلا عقليا في نشاط الانسان العملي ، وفي فهم هذا النشاط » (٢) .

لقد قدمت النظرية المادية لماركس ، وكذلك الآراء التي وضعتها حول النسبية والعلاقة بين النظري والعملي ، اساسا لانضاج علم الاجتماع : تحديد مجال الدراسة وتقديم منهج جديد ونخلص العلم من فلسفة التاريخ والمناهج المثالية :

وقد ادرك بعض علماء الاجتماع هذه الحقيقة :

أ ـ يقول بوتومور ان جروبالي Groppali قد استعرض كتابات ماركس ابتداء من « الحوليات الالمانية ـ الفرنسية (١٨٤٤) » حتى « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (١٩٥٩) واعلن انها تكشف عن التحرر الانتقادي لفكر ماركس من قيود فلسفة هيجل ، وقال ان المفهوم المادي للتاريخ ليس نسقا ميتافزيقيا وانما اداة لتفسير وشرح الحياة الاجتماعية وقد اختبر ماركس نفسه صحتها بدراساته التاريخية والاقتصادية (٣) .

ب ـ كما نجد جربفيتش يعبر عن مدى اهمية القضايا التي عرضناها ودور ماركس الفريد بقوله ان احد جوانب اختلاف ماركس عن الرواد الاوائل في علم الاجتماع تتمثل في انه لعب دورا في تحرر علم الاجتماع بعدم الخلط بين مجاله ومجال دراسة التاريخ ثم بادخال علم اجتماع المعرفة وبذلك نجح في ان يضع نسبية المعاملات الانسانية في علم الاجتماع (٤) .

(١) المرجع السابق ص ١٠٣

(2) Marx, Theses on Feurbach, (German Ideology, Proyrss Puhlishers, Moscow, 1964. P. 647.)

(3) Bottomore, OP. cit, P. 57.

(4) Gurvich, OP. cit, P. 38.

اما اولئك الذين ينكرون هذا الدور الذي لعبه ماركس في نفس الوقت الذي قد يضعون في اعتبارهم ما قدمه ويرددونه ، فان انجلز يقول (٥) عنهم : انهم سيتعجبون ولا شك عندما يكتشفون انهم امضوا حياتهم يتحدثون نثرا دون ان يدركوا ذلك ، مثلهم مثل « جوردان بطل احدى روايات موليير .

ـ ٢ ـ
تعريف المنهج ومكوناته

(١) تمهيد :

تتناول الدراسات الاجتماعية الظواهر والعمليات التي تظهر وتحدث في الحياة الاجتماعية . بيد ان هذه الموضوعات تتعرض لها علوم اجتماعية عديدة : الاقتصاد السياسي والتاريخ المدني الى جانب علم الاجتماع ، ومع ذلك فان المادية التاريخية لها موضوعها الخاص الذي تدرسه . وان ما يميزها عن العلوم الاجتماعية الاخرى هو ان تلك العلوم تدرس مجالات مفصلة من الحياة الاجتماعية ، على سبيل المثال: الدولة والاقتصاد ، والحياة الثقافية وما الى ذلك . ولكن حياة المجتمع في تكامل وترابط بين المظاهر المختلفة ، لذلك فان تلك الدراسات لا تنفي الحاجة الى دراسة عامة للمجتمع ، دراسة للروابط والعلاقات بين الاوجه المختلفة للحياة الاجتماعية فياستمرارها التاريخي .

وفي هذه النقطة بالتحديد تتميز المادية التاريخية عن العلوم الاجتماعية الاخرى. فهي تتناول المجتمع في مجموعه وتكشف عن قوانينه العامة ، وعن عملية التفاعل والروابط المتبادلة بين الاوجه المختلفة للحياة الاجتماعية . وعلى سبيل المثال : بين الاساس المادي للمجتمع والبناء الفوقي ، بين الاقتصاد والسياسة .

ومعنى ذلك ، انها تضع منهجا لعلم الاجتماع في مقابل الدراسات السوسيولوجية المنتشرة كثيرا والتي تقتصر على وصف الاحداث الاجتماعية أو المظاهر المختلفة للحياة وهي في عزلتها ، وكأنها ذرات لا رابطة بينها . وفي معرض توضيح أهمية المادية التاريخية في هذا الصدد يقول لينين : « ان علم الاجتماع فيما قبل ماركس والتدوين التاريخي يقدمان ـ في أحسن الاحوال ـ تراكما من الحقائق الاولية التي جمعت بطريقة عشوائية ، ووصفا لبعض جوانب العمليات التاريخية ، ولقد اوضحت الماركسية بفضل دراستها لمجموع الاتجاهات المتعارضة وارجاعها ـ على وجه الدقة ـ الى ظروف الحياة والانتاج المحددة لطبقات المجتمع المختلفة وتنحيتها النزعة الذاتية والعشوائية عند انتقائها للافكار « الموجهة » المختلفة او في تفسيرها ويكشفها عن ان كل الافكار ، كل الافكار المختلفة دون استثناء لها جذورها في ظروف القوى المادية للانتاج ، اوضحت الطرق الى دراسة شاملة تستوعب عملية نشأة التكوينات الاقتصادية ـ الاجتماعية وتطورها وتدهورها . (٦)

(٢) تعريف المادية التاريخية :

اذا كانت المادية التاريخية هي امتداد المادية الجدلية الى مجال الحياة الاجتماعية ، ومن هنا فهي جزء لا ينفصل عن مكونات النظرية الماركسية فان لها ـ كما ذكرنا ـ ميدانها ومقولاتها الخاصة النابعة من الطبيعة النوعية للحياة الاجتماعية . وعلى اساس ذلك نجد ان جلزرمان نضع لها التعريف التالي :

« المادية التاريخية هي النظرية العامة للعملية التاريخية ثم

(5) Engels, Dialictics of Nuture, Moscow, 1966, P. 88.

(6) Lenin, The Three Sourees and Three Component Parts of Marxism , Moscow , P . 28

أستخلاصها من دراسة التكوينات الاقتصادية ـ الاجتماعية ، وهي في نفس الوقت منهج لاكتساب المعرفة بالظواهر الاجتماعية » (١) .

ان هذا التعريف ، يشير الى ثلاث قضايا يمكن اعتبارها مكونات للمنهج :

١ ـ أن هذه النظرية العامة ليست مستمدة من نسق فلسفي تأملي ولكنها جاءت نتيجة دراسة تكوينات اقتصادية ـ اجتماعية معينة واستخلاص القوانين التي تحكم تلك التكوينات . ويمكن ان نترجم هذه القضية في صياغة محددة وهي ان المادية التاريخية تستهدف تعميم قوانين التطور الاجتماعي المستخلصة من الدراسات الواقعية .

٢ ـ ان هذه النظرية العامة للعملية التاريخية تقوم على النظرة المادية وفي هذه النقطة تكمن العلاقة المتشابكة مع المادية الجدلية .

٣ ـ والقضية الثالثة التي يشير اليها التعريف هي أن المادية التاريخية تعني ايضا صياغة منهج للبحث .

(١) كيف يتم تعميم قوانين التطور :

ولادراك محتوى هذه القضايا وما ترمي اليه ، علينا ان نستعرض جوهر النظرة الاجتماعية عند ماركس وكيف صاغ المفهوم المادي للتاريخ ومضى في تحقيقه بدراساته المتصلة .

ان نقطة البدء عند ماركس هي البحث عن العلاقة الاولية التي تميز المجتمع الانساني ، اي تلك العلاقة التي تلتقي فيها كل الظواهر المتباينة في الحياة فان المجتمع وكل شيء يتعلق بتاريخه هو نتاج جمع غفير من الافراد رجالا ونساءا وتصرفات الافراد متغايرة الى اقصى حد ، ولكن مهما كان التباين فانهم يعملون شيئا واحدا مشتركا هو الانتاج الاجتماعي . ومن هنا ، فان ماركس اعتبر العمل الانتاجي هو العلاقة الاولية بين الطبيعة والانسان . وهذه السمة النوعية التي تميز الحياة الاجتماعية هي التي جعلته يرفض فكرة تفسير الحياة الاجتماعية سواء باستخدام « الفيزيقيا الاجتماعية » او « الفسيولوجيا الاجتماعية » .

ولذلك قال : ان تفسير الحياة والتطور يجب البحث عنه في الاساس المادي الانتاجي للحياة الاجتماعية ، وان تطور التكوينات الاقتصادية الاجتماعية هي عملية من عمليات التاريخ الطبيعي وقد قام ماركس بعزل المجال الاقتصادي عن المجالات الاخرى للحياة الاجتماعية، اي عزل علاقات الانتاج من بين كل العلاقات الاجتماعية واعتبرها العلاقة الاولية والاساسية التي تتحدد وفقا لها العلاقات الاخرى .

وفي مقدمة كتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » يشرح ماركس كيف كان يفكر حول هذه القضية وما توصل اليه . وهذا الشرح يمثل المبادىء الجوهرية للمادية عند تطبيقها على المجتمع الانساني :

« ان العمل الاول الذي قمت به لتبديد الشكوك التي كانت تراودني هو العرض الانتقادي لفلسفة الحق لهيجل ... وادي بحثي الى ان العلاقات القانونية وكذلك اشكال الدولة لا يمكن فهمها من ذاتها ولا مما يسمى بالتطور العام للعقل البشري ، وانما على الاصح لها جذورها في الظروف المادية للحياة . والنتيجة العامة التي توصلت اليها ... يمكن صياغتها باختصار كما يلي :

« يدخل الناس خلال قيامهم بعملية الانتاج الاجتماعي في علاقات محددة لا يمكن الاستغناء عنها ومستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هذه تتطابق مع المرحلة المحددة لتطور القوى المادية للانتاج . وشكل المجموع الكلي لعلاقات الانتاج هذه البناء الاقتصادي للمجتمع وهو الاساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي السياسي والقانوني والتي تتطابق معها اشكال محددة للوعي الاجتماعي . ان اسلوب mode انتاج الحياة المادية هو الذي يحدد عمليات الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية بشكل عام . فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم ولكن على العكس من ذلك فان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم . وفي مرحله معينة من مراحل تطور قوى الانتاج المادية في المجتمع تصادم هذه القوى مع علاقات الانتاج القائمة ـ ومع علاقات الملكية التي كانت تمارس نشاطها من قبل في اطارها . وعلاقات الملكية هذه ليست سوى التعبير القانوني لعلاقات الانتاج . وخلال تطور قوى الانتاج تحول علاقات الملكية الى قيود تحد من عملية التطور . وعندئذ تبدأ فترة من الثورة الاجتماعية . ومع تغير الاساس الاقتصادي يتغير كل البناء الفوقي الهائل ، مع تفاوت في سرعة هذا التغير . وعندما ننظر الى هذا التحول يجب علينا ان نميز بين تحول الظروف الاقتصادية للانتاج التي يمكن ان تتحدد بنفس دقة العلوم الطبيعية وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والفلسفية والفنية ، او باختصار الاشكال الايديولوجية التي تنبه الناس الى هذا التصادم فيقاومونه . وكما ان فكرتنا عن الفرد لا تبنى على اساس ما يعتقده هو عن نفسه فاننا لا يمكننا ان نحكم على مثل فترة التحول هذه على اساس ما تسود فيها من وعي ، بل على العكس من ذلك ، فان هذا الوعي يجب ان يفسر من خلال تناقضات الحياة المادية ، وعن طريق الصراع القائم بين القوى الاجتماعية للانتاج وعلاقات الانتاج .

ولا يزول اي نظام اجتماعي أبدا قبل ان تنمو كافة القوى الانتاجية التي تجد مجالا للنمو فيه ، ولا تظهر علاقات انتاج اعلى مرتبة عن سابقتها قبل ان تنضج في داخل المجتمع القديم الاحوال المادية اللازمة لوجود هذه العلاقات .

« وهكذا فاننا نستطيع ان نحدد الخطوط العريضة لاساليب الانتاج الاسيوية والقديمة والاقطاعية والبرجوازية الحديثة وغيرها من اساليب الانتاج في كافة العصور التي اجتازتها عملية التكون الاقتصادي في المجتمع » (٢)

تلك هي الاسس العامة للمادية التاريخية والتي اعتبرها لينين انها كانت بمثابة أحد الفروض التي قام ماركس بتحقيقها فيما بعد ففي مؤلفه « من هم اصدقاء الشعب » ، الذي يناقش فيه افكار بعض علماء الاجتماع في روسيا نجد لينين يقول :

« ان فكرة المادية هذه في علم الاجتماع كانت في حد ذاتها ضربا من العبقرية . وبالطبع كانت لبعض الوقت مجرد احد الفروض ، ولكنه فرض خلق امكانية معالجة علمية ودقيقة للقضايا التاريخية والاجتماعية » (٣)

ثم يعرض لينين بعد ذلك عدة اسباب لتأييد هذا الرأي :

أولا : كان علماء الاجتماع قبل ذلك لا يهتمون بمعرفة ما هي العلاقات الاولية ، ومع ذلك تراهم يقومون ببحث ودراسة الاشكال السياسية والقانونية معتمدين على انها نشأت عن افكار بشرية معينة . ومثال ذلك المفهوم الذي عبر عنه كتاب « العقد الاجتماعي » . فالحقيقة انه لم يحدث ان ادرك اعضاء المجتمع العلاقات الاجتماعية التي يعيشونها كشيء محدد ومتكامل ، بل انهم يكيفون انفسهم مع هذه العلاقات ، كما ان مفهومهم عنها ـ باعتبارها علاقات اجتماعية تاريخية ومؤقتة ـ ليس سوى مفهوم بسيط غير متكامل . وقد أزالت المادية هذا الغموض والتناقض بالمضي في تحليل أعمق حول اصل افكار الانسان الاجتماعية ذاتها . وذلك على اساس ان سمة واتجاه نشاط الانسان تحدده ظروف الحياة المادية ولكن مع اعتبار ان هذه الظروف يغيرها الناس انفسهم . فهم يملكون وعيا وارادة ، اي مع اعتبار للسمة الواعية للحياة الاجتماعية في اختلافها عن الطبيعة . « فكل منتج على حدة يدرك بالطبع انه بدخل هذا التعديل او ذاك في تكتيك الانتاج ، وكل مالك

(1) Glezerman, OP. Cit, P, 24.

(2) Marx and Engels, Selected Worvks V, I, moscow, 1958, PP. 362 - 363.

(3) Lenin, Collected Works, V. I. P. 199

يدرك بالطبع انه يبادل منتجاته بمنتجات اخرى ، ولكن هؤلاء المنتجين والملاك لا يدركون انهم بهذا يغيرون الوجود الاجتماعي .

ان سبعين شخصا من امثال ماركس لا يستطيعون ان يستوعبوا كل هذه التغييرات في جميع فروع الاقتصاد العالمي ، والامر الجوهري هو انه قد تم اكتشاف قوانين هذه التغييرات ، وان المنطق الموضوعي لهذه التغييرات وتطورها التاريخي قد تم تبينها .. فحقيقة انك تعيش وتقوم باعمالك وتنجب اطفالا وتنتج وتبادل ، تؤدي الى نشأة سلسلة من الاحداث ، سلسلة من التطور الضرورية موضوعيا والمستقلة عن وعيك الاجتماعي ، والتي لم تدركها الوعي بشكل كامل مطلقا ، وان الواجب الاسمى للانسانية هو ان تدرك هذا المنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي ـ لتطور الحياة الاجتماعية ـ بقسماته العامة والاساسية » (١) .

وثانيا ـ ان هذا الفرض كان اول شيء يصل بعلم الاجتماع الى مستوى العلم (٢) . فقد كان علماء الاجتماع غير قادرين على ان يميزوا بين ما هو هام وغير هام في الشبكة المعقدة للظواهر الاجتماعية . ومن ثم كانوا غير قادرين على ايجاد معيار موضوعي لعملية التمييز . وقد قدم ماركس المعيار المطلوب عن طريق عزل علاقات الانتاج على انها تمثل هيكل المجتمع . وان تحليل هذه العلاقات يجعل من الممكن ان نلاحظ التكرار والانتظام في الظواهر الاجتماعية وان نقوم بتعميم انظمة البلدان المختلفة في مفهوم اساسي هو « التكوين الاجتماعي » Social Formation وكل تكوين اجتماعي يميزه نوع معين من علاقات الانتاج ، الا ان ذلك لا يعني ان هذا التكوين لا يشمل الا الاساس الاقتصادي . انه يتضمن ايضا البناء الفوقي بكل مظاهره .

ان هذا التعميم هو الذي يجعل من الممكن ان ننتقل علماء الاجتماع من مجرد وصف الظواهر الاجتماعية وتطورها من وجهة نظر مثالية او مجرد جمع المواد الخام الى التحليل العلمي الدقيق الذي نعزل ، ونقول على سبيل المثال :

ما يميز بلدا راسماليا عن اخر ويبحث ما هو عام او مشترك بينهما . فكل تطور هو مزيج بين ما هو فريد ولا يقبل التكرار وبين ما هو عام ومشترك وقابل للتكرار ، اي اتحاد ما بين الفردي والعام . فجميع المجتمعات الاقطاعية على سبيل المثال ، تحكمها قوانين اساسية مشتركة ، ولكن كل بلد على حدة له ما يميزه ويؤثر ايضا على ما هو عام . فمثلا كان لاعتماد مصر على النيل وما تطلبه ذلك من ادارة مركزية اثره على القوانين العامة للتكوينات الاقطاعية ، فاتخذ الاقطاع في مصر طابعا مميزا عن اوروبا، ومن هنا فان هذا المفهوم يقر بوجود قوانين عامة وقوانين نوعية في كل التكوينات .

ان مفهوم التكوين الاجتماعي يتعارض مع تلك الدراسات واساليب البحث المنتشرة عند بعض علماء الاجتماع المعاصرين الذين لا ينظرون الى المجتمع كبناء في مجموعه بل يمضون في بحث بعض جوانب الحياة في معزل عن بعضها .

كما ان هذا الفرض خلق امكانية وجود علم اجتماع علمي (٣) . فان اختزال العلاقات الاجتماعية الى علاقات الانتاج واختزال الاخيرة الى مستوى القوى الانتاجية قد قدم اساسا راسخا لمفهوم ان تطور المجتمع عملية تاريخية طبيعية . وبدون تلك النظرة لا يمكن ان يوجد علم اجتماعي . فمثلا على الرغم من ان الذاتيين يعترفون بان الظواهر التاريخية تمتثل الى قانون فانهم غير قادرين على اعتبار تطور تلك الظواهر كعملية تاريخية طبيعية . وذلك لانهم على وجه التحديد يرتكبون امام الافكار الاجتماعية للانسان واهدافه وغير قادرين على ارجاعها الى العلاقات الاجتماعية المادية .

كيف حقق ماركس هذا الفرض ؟

بعد ان وضع ماركس صياغته لهذا الفرض في اربعينيات القرن التاسع عشر ، مضى يدرس المعطيات الواقعية لاحد التكوينات الاقتصادية ـ الاجتماعية (التكوين الراسمالي) . وظهرت هذه الدراسة في شكل المؤلف الضخم « راس المال » . فاثناء تحليل ماركس للمجتمع الراسمالي من زاوية علاقات الانتاج قام بدراسة البناء الفوقي المتطابق مع هذه العلاقات فاظهر التكوين الاجتماعي الذي يدرسه بكل جوانبه ومظاهره الاجتماعية والتناقضات الطبقية الكامنة في علاقات الانتاج .

ولقد اسس ماركس هذه النتائج باستخدام مجموعة ضخمة من الحقائق والبيانات الواقعية التي جعلته قادرا على وضع تعميماته . وفي هذا الصدد نجد لينين يعقد مقارنة بين داروين وماركس ويقول :

« كما ان داروين وضع حدا للمفهوم الذي يرى ان انواع الحيوان والنبات لا يرتبط بعضها ببعض ، وانها عرضية ولا تتغير ، وكما انه كان بذلك اول من وضع علم الحياة على اساس علمي بشكل كامل، حين اثبت تغير الانواع وتسلسلها ، كذلك نجد ان ماركس وضع هو الاخر حدا للمفهوم الذي كان يرى ان المجتمع تجمع آلي من افراد يتعرض لكل انواع التبدل وفقا لاهواء السلطات (او وفقا لاهواء المجتمع والحكومة) ، وان ذلك المجتمع يولد ويتغير وفقا للصدفة ، وكان ماركس بذلك اول من وضع اساسا علميا لعلم الاجتماع حين اقام مفهوم التكوين الاقتصادي للمجتمع على انه مجموعة من علاقات الانتاج ، وحين قرر ان تطور تلك التكوينات عملية تاريخية طبيعية .

« والان ومنذ ظهور « راس المال » لم يعد المفهوم المادي للتاريخ مجرد فرض وانما قضية تمت برهنتها علميا » (٤)

ان البعض قد يختلف مع النتائج التي توصل اليها ماركس ،ولكن سيبتعد عن الصواب من يقول ان المنطق الذي استخدمه ماركس«ليس منطقا منهجيا يتخذ نقطة البداية من الظواهر » مثلما يقول محمد فتحي الشنيطي في كتابه :« الفلسفة الماركسية » .

والغريب ان لينين يدفع عن ماركس اتهاما يوجه اليه من الزاوية المقابلة تماما ، وكان الشنيطي لم يقرأ ماركس او النقد الذي وجه اليه . فاثناء مناقشة لينين لكتابات ميخالوفسكي عن ماركس و « راس المال » يقول :

« فان تبدأ بالسؤال عما هو المجتمع وما هو التقدم يعني ان تبدأ من النهاية . فمن اين تحصل على مفهوم عن المجتمع وعن التقدم عموما اذا لم تكن قد درست تشكيلا اجتماعيا واحدا على وجه الخصوص . اذا لم تكن قادرا ايضا على اقامة هذا المفهوم ، اذا لم تكن قادرا ايضا على القيام بمعالجة موضوعية جادة ،اي تحليل موضوعي ، للعلاقات الاجتماعية من اي نوع كانت ؟ انهذه علامة واضحة على الميتافيزيقية التي تبدأ مع كل علم . فطالما ان الناس لا يعرفون كيف يشرعون في دراسة الحقائق ، فانهم يخترعون عادة نظريات عامة مسبقة ، وعادة ما تكون هذه النظريات عقيمة » (٥) .

ان لينين يقرر بذلك ان الخطوة الجبارة التي قام بها ماركس تكمن بالتحديد في انه استبعد المجادلات حول المجتمع وحول التقدم واوجد تحليلا علميا لمجتمع معين . « غير ان ميخالوفسكي يلوم ماركس لانه بدأ البداية الصحيحة ولم يبدأ من النهاية ،ولانه

---

١ ـ Lenin, Collected Works, V. 14, P. 325
٢ ـ Lenin, Collected Works, V. I. P. 140
٣ ـ Ibid , P . 141
٤ ـ Ibid , PP . 141 - 142 .
٥ ـ Ibid , P . 144

بدا بتحليل الحقائق وليس بالاستنتاجات النهائية ، بدا بدراسة علاقات اجتماعية معينة تحددت تاريخيا ولم يبدأ بنظريات عامة عن مكونات هذه العلاقات الاجتماعية » (١)

ولكن هل صياغة مفهوم التكوين الاجتماعي وتعميم قوانين التطور يعنيان ان المادية التاريخية تفسر كل شيء ؟ وهل يتناقض هذا المفهوم مع قول انجلز ان « نظريتنا انما مرشد للبحث » ؟.

ان الطريقة التي حقق بها ماركس الفرض الذي وضعه هي التي جعلت جلزرمان يقول في تعريفه للمادية التاريخية انها قد استخلصت من دراسة التكوينات الاجتماعية .

ونعتقد ان هذا القول لم ينسب الى ماركس شيئا لم يكن يقصده، فقد حدد بنفسه الهدف من كتاب « رأس المال » في مقدمة الكتاب بقوله:

« ان الهدف الاساسي لهذا العمل هو كشف القانون الاقتصادي لتطور المجتمع الحديث » والقيمة الاساسية هنا هي قيمة منهجية. والشيء الهام في هذا المنهج هو معالجة موضوعية للقانون الذي يحكم الظواهر موضع البحث واظهار قانون التغير ، اي تطور الظواهر وتحولها من شكل الى اخر . وان المنهج الذي استخدمه في ذلك هو الذي اوضح قصور المناهج التي استخدمها السابقون عليه الذين حاولوا فهم قوانين التطور وفقا للقوانين الميكانيكية او على انها او « فيزيقا اجتماعية » او « فسيولوجيا اجتماعية » .

ومن هنا فهو يرفض فكرة ان قوانين الحياة الاقتصادية تعتبر واحدة بالنسبة للماضي والحاضر ، وان ما كتبه ماركس في مقدمة « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » يؤكد ذلك . فكل نسق من علاقات الانتاج يعتبر بناء اجتماعيا له صفات نوعية الى جانب تلك السمات المشتركة بين كافة التكوينات.

وتطبيق منهج ماركس ليس سوى معيار يرى انه المعيار الموضوعي الذي يمكن ان نفهم به ما هو اساس في الشبكة المعقدة للحياة الاجتماعية . ومن هنا تظهر اهمية ان يمتد هذا المنهج الى دراسة التكوينات الاجتماعية الاخرى . فالنظرية المادية « لا تدعى تفسير كل شيء وانما تشير فقط الى المنهج العلمي الوحيد »في دراسة المجتمع .

(٢) العلاقة بين المادية والجدلية والمادية التاريخية ـ مدخل لقوانين التطور :

تعرضنا من قبل الى محاولة عزل المادية التاريخية عن المادية الجدلية . والحق ان هذه المحاولات يرجع مصدرها الى موجة مراجعة الماركسية في اواخر القرن الماضي .

وكان ممثلو هذه الموجة هم كاوتسكي وبرنشتاين . والغريب ان البعض بوتومور (٢) على سبيل المثال ـ لا يزال يعتمد على مؤلفات كاوتسكي خاصة في فهم المادية التاريخية . وكاوتسكي يقول في صراحة ان « المفهوم المادي للتاريخ لا يرتبط بالفلسفة المادية » (٣) .

ويرد جلزرمان على هذا القول مستندا الى انجلز ولينين بأن هناك علاقة لا تنفصل بين المادية الجدلية والمادية التاريخية . فالتاريخية تدرك الوجود الاجتماعي مستقلا عن الوعي الاجتماعي. غير ان هذا الرأي حول القضية السوسيولوجية التي شغلت العلماء والمفكرين طويلا لا يعني ان المادية التاريخية ليست الا مجرد تطبيق لمقولات الجدلية على المجتمع دون اعتبار للطبيعة النوعية للوجود الاجتماعي .

فعندما تتخذ المادية التاريخية العلاقات الاجتماعية المحددة كموضوع للبحث ، فانها في حقيقة الامر تدرس ايضا الناس الذين تتشكل هذه العلاقات نتيجة لنشاطهم . فعن طريق اظهار جدلية العملية التاريخية واظهار تباين الجوهر الاجتماعي للانسان المتمثل في العمل الانتاجي تستطيع المادية التاريخية ان تظهر الطابع النوعي لمقولاتها رغم ذلك الارتباط بالمادية الجدلية .

مقولات المادية التاريخية ـ قوانين التطور :

أ ـ يتمثل القانون الاول في الدور الحاسم الذي يلعبه اسلوب الانتاج في تشكيل البناء الفوقي للمجتمع . فاسلوب الانتاج هو الذي ينهض عليه بناء المجتمع : سماته ، وافكاره ومؤسساته . ويتشكل اسلوبا لانتاج من مظهرين : القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

وتتكون قوى الانتاج من الناس العاملين وما يستحوذون من خبرة في العمل . كما ان علاقات الانتاج تتحدد وفقا للشكل الذي تتخذه ملكية وسائل الانتاج ووضع الفئات والطبقات في عملية الانتاج ذاتها . ان كل نوع من القوى الانتاجية لعلاقات انتاجية تتطابق معه . فالقوى الانتاجية هي العنصر الحاسم في اسلوب الانتاج. فهي اكثر العناصر حركة وتغيرا . وعندما تتطور يحدث صدام مع علاقات الانتاج التي قد تعوق تطور القوى المنتجة . وينتهي هذا الصراع بان تحل علاقات انتاجية جديدة تتطابق وتتوافق مع القوى الانتاجية التي نمت وتطورت . وعلى سبيل المثال فان « وسائل الانتاج والتبادل التي قامت البرجوازية على اساسها ، بزغت داخل المجتمع الاقطاعي ، وحينما بلغت مرحلة معينة من التطور لم تعد الظروف التي كان المجتمع الاقطاعي ينتج ويبادل في ظلها ، لم يعد التنظيم الاقطاعي للزراعة وصناعة الورش ، وفي كلمة واحدة لم يعد النظام الاقطاعي الملكية يتفق مع القوى الانتاجية التي تطورت بالفعل، بل تحول الى قيود تعرقلها واصبح الواجب تحطيم هذه القيود ، وقد تحطمت بالفعل . و« ظهرت مكانها المنافسة الحرة ونظام اجتماعي وسياسي يتوافق معها وكذلك السيطرة الاقتصادية والسياسية لطبقة البرجوازية » (٤) .

غير ان هذه العملية لا تحدث بشكل ميكانيكي . وان كلمات ماركس في مقدمة « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » تؤكد هذا المعنى . فاذا كان التغير في القوى الانتاجية يحدث بطريقة يمكن ملاحظتها بوضوح ودقة فان تغير البناء المصاحب لها يمر بتعرجات ويسير في خط حلزوني وقد يصادف فيه لحظات انتكاس .

وحسب رأى لابريولا Labriola استاذ الاجتماع الايطالي فان الدور الحاسم للهيكل الاقتصادي (٥) ليس عملية ميكانيكية ينبثق عنها البناء الفوقي من مؤسسات وقوانين وايديولوجية .فهناك عملية معقدة ، بل وقد تتسم احيانا بالتعرجات التي لا تدرك بسهولة، وعندما يعرف لابريولا علم الاجتماع بانه علم الوظائف والتغيرات الاجتماعية فانه يضع مساهمة ماركس في هذا الميدان الجديد للمعرفة كسلسلة من الاكتشافات التي ستمكن الانسان من ان يصبح سيد مصيره .

ان فكرة البناء الفوقي القائم على نوع معين من اسلوب الانتاج قد ابعدت فكرة ان الانظمة الاجتماعية خالدة وابدية . فكل اسلوب انتاج ـ وهو يقوم على شكل معين من اشكال الملكية ـ لا يمكن ان يكون سوى مرحلة تاريخية . والانظمة الاجتماعية المصاحبة لذلك الاسلوب ليست الا انظمة تاريخية مؤقتة .

(1) Ibid, P. 145.
(2) Bottomore, op - Cit.
(3) Gezerman, Op - Cit, P. 8
(4) Marx and Engels, Maniferto of the Communist Partg Peking, 1965, P. 37
(5) Bottomore, OP - Cit, P. 51.

وبهذا المعنى يوجه ماركس وانجلز حديثهما الى البرجوازيين قائلين :

« ان مفهوماتكم المفرضة تدفعكم الى اعتبار العلاقات الاجتماعية المتولدة عن اسلوبكم في الانتاج وعلاقات الملكية ـ هذه العلاقات التاريخية التي يمحوها سير الانتاج ذاته ـ قوانين طبيعية وعقلية. لم تنفردوا بهذه المفهومات فقد تمسك بها من قبل كل الطبقات التي حكمت من قبلكم . ان ما تقرونه بوضوح فيما يتعلق بالملكية الاقطاعية ليس في استطاعتكم ان تقبلوه بالنسبة للملكية البرجوازية »(١).

لقد كانت الافكار التي وضعتها الماركسية حول هذه القضية تطويرا لافكار المفكرين الاجتماعيين السابقين عليهما . وقد اكد لينين هذه القضية في مطلع كتابه « مصادر الماركسية » . فان تيري ومينييه وجيزو المؤرخين الفرنسيين قد اشاروا الى علاقات الملكية كأساس لنظام اجتماعي . وجاء سان سيمون والقى الضوء لاول مرة على تاريخ هذه العلاقات في اوروبا الحديثة ، بل وسار الى ابعد من هذا وسأل نفسه : لماذا تلعب هذه العلاقات بالتحديد وليس غيرها ، مثل هذا الدور الهام . وهو يرى ضرورة البحث عن اجابة لذلك في متطلبات التطور الصناعي . وقد يبدو ان التطور المنطقي لهذه الآراء لا بد ان يؤدي بسان سيمون الى استخلاص ان قوانين الانتاج هي القوانين التي تحدد التطور الاجتماعي . والحق ان سان سيمون قد اقترب في بعض الاحيان من هذه الفكرة ، ولكن في بعض الاحيان فحسب .

لقد كان لهذا القانون الذي اكتشفه ماركس تأثير هام على الفكر السوسيولوجي، خاصة من زاوية منهج الدراسة في علم الاجتماع. ونجد البعض يقدر اهمية هذا الاكتشاف بقوله :

« ان الميزة العظيمة لماركس تتمثل في انه وضع تمييزا في مجال الظواهر الاجتماعية بين اساس فعال وبناء فوقي يتذبذب بين رمزية ووعي مطابق . بنفس المعنى ـ وماركس يقول هذا صراحة حيث يضطر علم النفس ان يضع تمييزا بين السلوك الفعلي والوعي. وعلاقة البناء الفوقي باساسه المادي هي نفس علاقة وعي الفرد وسلوكه » (٢) .

ان الوضع الاقتصادي ـ عند ماركس ـ هو الاساس وهو يتأثر بدوره بالبناء الفوقي . ولكننا نجد بعض المؤلفات في علم الاجتماع في مصر تردد ان ماركس جعل العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد. ومن امثلة هذا الرأي :

« اعتبر ماركس ان الاقتصاد هو العامل الوحيد الموجه لتاريخ البشرية ولكن اذا كانت العوامل الاقتصادية تلعب دورا هاما في الاحداث التاريخية بل قد توجهها فعلا ، الا انه من المغالاة ان نهمل سائر العوامل الاخرى من سياسية واجتماعية وادبية . ويمكن ان نضرب لذلك مثلا بالحروب الدينية التي تزكيها العواطف الدينية والتي لا تمت بصلة الى الاقتصاد » (٣) .

ونعتقد ان هناك فرقا كبيرا بين اعتبار اسلوب الانتاج كأساس للحياة الاجتماعية وبين النظر اليه على انه العامل الوحيد .

وثانيا ، فان افكار ماركس لم تضع العامل الاقتصادي على انه العامل الوحيد الذي لا تأثر باي شيء ولا يشاركه اي عامل اخر في دفع عملية التطور .

ونعتقد ايضا ان ماركس قد اوضح في اعماله مدى تأثير العوامل غير الاقتصادية ، بل انه استخدم امثلة في كتاب (الثامن عشر من برومير) تشابه ، بل تكاد تطابق ، مثال الحروب الدينية الذي يقدمه الانتقاد الذي عرضناه آنفا .

والاكثر اهمية من ذلك هو ان الماركسية وضعت صياغة محددة واضحة للدور الذي يمكن ان يلعبه الوعي الاجتماعي في التطور فان ماركس يقول ، « ان النظرية ذاتها تتحول الى قوة مادية حين تتغلغل في الجماهير » .

كما اننا نجد بعض علماء الاجتماع يقرون ان الماركسية تضع اهمية للدور الفعال للافكار في التطور ولكنهم يستخدمون هذه الحقيقة في توجيه النقد الى المادية التاريخية .

فكارل موش ، عالم الاجتماع الالماني ، يقول ان اقرار الدور الفعال للافكار في التطور يتعارض مع المقولة الاساسية للمادية التاريخية التي تقول ان الافكار تعتمد على الوعي . فاقرار التفاعل (٤) بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي يجعل الماركسية في الواقع توأما للمثالية خصمها اللدود مع بقاء مجرد « ظل بسيط » من الاختلاف يتمثل في ان الماركسية ترجع العوامل الفكرية لاسباب اقتصادية .

ويعلق جلزرمان على رأي كارل موش قائلا انه يرد على نفسه . فهذا « الظل البسيط » هو الشيء الاساسي .

(ب) نظرية الصراع الطبقي :

نبهت الصدمات التي تنشأ بين الافراد في المجتمع المفكرين الى هذه الظاهرة . ولكن احدا قبل ماركس لم يضع صياغة واضحة ومحددة لفكرة الطبقات الاجتماعية . فهو يقول : « ان تاريخ كل المجتمعات التي وجدت حتى الان هو تاريخ الصراع الطبقي (واضاف انجلز : باستثناء تاريخ المجتمعات البدائية)

« فالاحرار والعبيد ، النبلاء والعامة ، السيد الاقطاعي والقن، صاحب الحرفة والصانع الاجير ، وباختصار المستغِلون والمستغَلون كانوا في تعارض دائم ، وكان بينهم صراع مستمر ، احيانا بشكل ظاهر واخرى بشكل مستتر ، صراع ينتهي دائما اما باعادة بناء المجتمع باكمله على اساس ثوري واما بانهيار الطبقتين المتصارعتين معا » (٥) .

ويوضح ماركس وانجلز ايضا انه توجد داخل كل طبقة من هذه الطبقات مراتب ودرجات مختلفة .

عندما وضع ماركس هذه النظرية ، استند الى عملية تنظيم الانتاج وتقسيم العمل . فالوضع الذي يشغله المرء في عملية الانتاج هو بمثابة الدليل على الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها . غير ان ماركس يقول ان وجود الطبقة الاجتماعية يستلزم ايضا ان تعي الطبقة ذاتها .

ولقد كانت النظرية الماركسية عن الطبقات الاجتماعية من الناحية الاولى اسهاما في تفكيرنا » (٦) . فقد كان لها تأثير لا يحد على النظرية السوسيولوجية حتى وان لم يعترف البعض بهذا صراحة .

اولا ـ نجدها تقوم بتعميم تصرفات الافراد بارجاعها الى تصرفات الجماعات . فهي توضح ان الاختلاف في اوضاع الطبقات التي ينقسم اليها المجتمع هو مصدر الامالي المتصارعة بين الناس .

وثانيا ـ انها تحدد مفهوم الجماعة الاجتماعية باسلوب مادي اي انها تقدم معيارا للتمييز بين الجماعات الاجتماعية . فالظواهر الدينية والاثنوجرافية والسياسية والقانونية وما الى ذلك يمكن ان

---

(1) Marx and Engels OP - Cit, PP. 52 - 53

(2) Bottomore, OP - Cit, P. 63

(٣) عبد الحميد لطفي ، علم الاجتماع مؤسسة الثقافة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٤) نقل جلزرمان هذا الرأي في كتابه « قوانين التطور الاجتماعي » ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(5) Marx and Engels, The Manifesto, P. 31

(٦) جوزيف شومبيتز ، الرأسمالية ، والاشتراكية والديموقراطية ج ١ ص ٣٨

تستخدم كمقياس للتمييز بين الجماعات ، ولكنها تمييزات عشوائيـة غير دقيقـة . غير ان نظريـة الصراع الطبقي تقدم معيارا اخر يختـزل نفس هذه الظواهـر الى اصولها . فانقسام المجمع الى طبقات يحدده الوضع الذي تشغله تلـك الجماعات في عملية الانتاج .

وثالثا ـ تضع افكارا واضحـة للطريقة التي يجري بها التطـور وتبيـن ان صراع الاضداد اي الطبقات المتصارعة يعتبر دافعـا اساسا للتطـور الاجتمـاعي ، فمـا تاريخ المجتمع سوى تاريخ صراع الطبقات. ويقول شومبيتر « ويعني هذا القول الوصول بالادعاء الى اقصى الذرى، ولكـن حتى لو شئنـا الهبوط به الى حد مجرد الفرضية القائلـة بان الاحداث التاريخيـة يمكـن تفسيرهـا في الغالب على صعيد المصالح الطبقيـة والمواقف الطبقية ، وان البنايات الطبقيـة القائمة هي دائما عوامل مهمـة في التفسيـر التاريخي ، فان ما يتبقى منهـا يظل كافيا لدفعنـا الى الحديث عنه كمفهوم نادر لا بقدر بثمن ولا يقل اهميـة عن مفهوم التفسير الاقتصادي للتاريخ نفسه » (١) .

ولكن هذه النظرية ليست الا احدى مقولات المفهوم المادي للتاريخ اي من القوانيـن التي اكتشفتهـا الماديـة التاريخية ، لذا يمكن اعتبار نظريـة الصراع الطبقي من مكونات المنهج الجدلي في علم الاجتماع .

ويقول لينين وهـو ينتقـد علم الاجتمـاع عند جماعة النارودنيك الروس ان السيـد استروف ، على حق تمامـا حينمـا يقول انّ نظرية الصراع الطبقي تتوج المسعى العام لعلم الاجتمـاع لارجـاع العنـاصر الفرديـة الى اصول اجتماعية (٢) كمـا ان هذه النظرية توضح كيف يحل نظام اجتمـاعي محل اخـر نتيجة لذلك الصراع .

وتتخذ هذه العمليـة شكل الثورة الاجتمـاعية التي تفصل مرحلة مـن التطـور عن مرحلـة اخرى . وتبيـن نظريـة الثورات الاجتماعية وهي من قوانيـن الماديـة التاريخية ان التكوينات الاجتمـاعية لا تتطور عن طريق تغيرات تطوريـة فحسب ، وانمـا ايضـا عـن طريق تغيرات ثوريـة تحول بشكل اساسي مجرى تطور المجتمع .

٣ ـ منهج البحث :

تستهدف المادية التاريخية معرفة القوانين التي تحكم المجال الذي تدرسه ، اي قوانيـن حركة المجتمع وتطوره ومـا يحكم التفاعل بيـن الظواهـر الاجتماعية . وقد قدمت مبادىء منهجية عامة الى جانـب القوانين التي اكتشفتهـا نتيجة الدراسات الواقعية .

وهي تضع ، كمـا جاء في التعريف الذي وضعه جلزرمـان ، صياغة لمنهج البحث . صياغة تضمن استخـدام تلـك المبـادىء المنهجيـة والقوانين التي توصلـت اليهـا .

ان منهج البحث هذا يقوم على الاسس التالية :

١ ـ تعريف للقانون الذي يحكم الظواهر .

٢ ـ متطلبات المنطق الجدلي في دراسة اية قضية .

٣ ـ العلاقة بين المبادىء المنهجية واساليب جمع البيانات .

اولا ـ ما هي صفات القانون الذي يحكم الظواهر ؟

اذا كانت المادية التاريخية تقول انها قـد قدمت للعلـوم الاجتماعيـة اكتشافات تعتبرهـا بمثابة القوانيـن التى تحكم التطور الاجتماعي ، فـان الماركسية تضع فهمـا وصياغة محددة حـول مـا تنطبق عليه صفـة القانـون .

والقسمات المشتركة لكل قانون هي كما يلي :

أ ـ ان اي قانـون لا بد وان يعكس الروابط الجوهرية بيـن الظواهر ، فهناك عدد لا نهائي من الروابط في الحياة . بعضها اساسي والاخـر ثانـوي . ولاكتشاف القانـون لا بد ان نصل الى جوهر الظواهر ونكشف عن الروابط الاساسية . وحسب كلمـات لينين فان القانـون هـو « علاقة ، علاقـة بيـن جوهر الاشياء » .

ب ـ لا يعبر القانـون عن علاقة فردية وانمـا علاقة كلية ، وكمـا اوضح انجلز في كتاب « جدل الطبيعة » فان القانـون هو احد اشكال الشمول ، ولاكتشافه علينـا معرفة مـا هو عام فيمـا هو فـردي وخـاص .

ج ـ يعبر القانـون عن علاقـة ضرورية . ولمعرفتـه علينا ان نستبعـد الروابط العرضيـة .

د ـ انه يعبر عن علاقـة ثابتة مستقرة بيـن الظواهر ومـع ان الطبيعـة والمجتمع في تغيـر مستمر الا ان هناك علاقـة محددة ثـابتة نسبيـا . وقد قال لينين في « الدفاتر الفلسفية » ان القانـون هـو الشيء الثابت والدائم بين الظواهر » .

ومن هذه القسمات يمكـن ان نستخلص صفتين اساسيتيـن لاي قـانـون :

اولا ـ ان القانـون او العلاقة ليست ثابتة بشكل مطلق . بـل تعتبـر تاريخية بشكل معين حيث لا توجـد الا اذا ظلت الظـروف كما هي . فقوانيـن البيولوجيـا مثلا لـم تظهـر الا مع ظهـور الحياة . وقوانيـن المجتمع الاقطاعي في بلد معيـن تزول من المجتمع مع انهيـار ذلـك النظام . كمـا لـم تظهـر قوانيـن الرأسمالية الا مـع ظهورهـا في مرحلـة تاريخيـة معينـة .

وثانيا ـ وفي نفس الوقت يعتبر القانـون مطلقـا ودائما في حالة استمرار الظروف التي يعمل في ظلهـا كما هي .

لقد كان لهذا الفهم لطبيعـة وسمات القانون ، خاصة صفتـه النسبيـة التاريخية ، اثره في الحكم على عدم جدوى فكرة القوانين الطبيعية الخالدة التي حاول بعض رواد علم الاجتمـاع ان يفسروا بها تطـور المجتمـع .

ثانيا ـ متطلبات المنطق الجدلي في البحث

اثناء الدراسة والبحث نستخدم عادة التجريد والتصنيف . ومعنى ذلـك اننـا نفصل الموضوعات ونرتبها لتمييزها . ولكن علينا ان نتذكر دائمـا ان الموضوعات التي عزلناها لا توجد منفصلة . فان لها روابطها بالمجال الاجتمـاعي الذي توجه فيه . كمـا انهـا في حالة تغيـر. لذا علينـا ان نتذكـر دائمـا ان المبادىء التي اتبعناها في التصنيف قـد تحتاج الى مراجعـة اذا حدث تغير في الظروف .

ويقول لينين ان المنطق الجدلي يتطلب منـا عند دراسة اية قضية يجب ان نراعي المسائل التالية (٣) :

١ ـ لكي نحصل على معرفة حقيقيـة باحد الموضوعات يجب ان نستوعب وندرس كل جوانبه ، كل روابطه ومجاله واذا كنـا لن نحقق ذلـك بشكل كامل فـان مراعاته تجنبنـا الخطأ وعدم التعسف .

٢ ـ علينـا ان نتناول الموضوع في تطوره ، في حركته الذاتيـة وتغيـره .

٣ ـ ان التجربة الانسانية في مجموعهـا يجب ان تدون وتصاغ في تعريف كامل للموضوع يكـون بمثابة مؤشر عملي .

٤ ـ انه وفقـا للمنطق الجدلي ـ كما قال انجلز ـ ليس هنالك حقيقـة مجردة وانمـا الحقيقة عينية Concrete فالروح الخلاقـة للماركسيـة هي التحليل العيني لظروف عينية

ثالثا ـ العلاقة بين المبادىء المنهجية والاساليب

تتمثل المبادىء المنهجية التي تستخدم في البحوث الاجتماعيـة

---

١ ـ المرجع السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

2 - Lenin, Collected Works, VI, P. 410.

٣ ـ نقلا عن :

Cornforth , Science Versus Idealism , lewrence and: Wishart , London - 1955 . PP . 327 - 328 .

والسيوسيولوجية في القوانين العامه للمادية التاريخية اما الاساليب فانها تتميز بسمة تطبيقية اساسية . فهي تتعلق بطرق الحصول على المعطيات الواقعية واساليب معالجتها .

وترتبط المبادىء المنهجية والاساليب ببعضها . فان على الاساليب ان تضمن استخدام المبادىء المنهجيه في البحث العيني وفي عمليه التعميم . وعلى سبيل المثال ، فانه اذا كان الاحصاء والاساليب الرياضية المختلفة لها اهميه في البحوث السوسيولوجية فان علم الاجتماع لا يمكن اختزاله الى الاحصاء مثلا . فالاحصاء ـ مثله مثل اي اسلوب اخر ـ ليس الا وسيلة يستخدمها علم الاجتماع .

ان اكداس المواد الخام لا قيمة لها ان لم تعالج وفقا لمبادىء منهجية عامة يتم على اساسها اجراء التعميمات في البحوث الاجتماعية .

ان هذا المرشد النظري هو الذي يسمح بان ننظر الى المجتمع في مجموعه ، ومعرفة اشكال التفاعل والتاثير المتبادل بين مختلف الظواهر . لان تجميع المواد الخام او حتى البحوث السوسيولوجيه التي تدرس مشاكل الحياة اليوميه لا يمكن ان تكون هي علم الاجتماع .

فدراسه مشاكل الاسرة او التربيه او المواصلات لن يكون في احسن الاحوال الا دراسات للتخطيط الاجتماعي .

ومن هنا تنبع اهمية مبادىء الماديه التاريخية لتناول هذه القضايا في مجموعها . فعلم الاجتماع لا يجب ان يتخلى عن دوره كعلم يدرس المجتمع في مجموعه ، في حركته وتطوره ، ويستهدف اكتشاف قوانين حركة المجتمع . ومن ثم يكون قادرا على التنبوء بالمسار العام لهذه الحركة .

واثناء اجراء التعميمات يجب ان تتم معرفه الكيفية التي تعمل بها القوانين السوسيولوجية (اي قوانين الماديه التاريخيه) . ان تم معرفة كيفية عمل هذه القوانين في العمليات العينية وبل واستهداف اكتشاف اية قوانين جديدة في المجالات الاجتماعية .

ان دراسة اي عملية اجتماعية لا تبين مجرد تطابقها مع قوانين الماديه بل ان الشيء الاساسي هو انها تبين الانماط التي تعمل بها هذه القوانين في ظل الظروف المعينة (١). لذلك هناك حاجة دائمة الى الاستفادة من البحوث الاجتماعية لاجراء تعميمات نظرية جديدة تغني المنهج الجدلي وتزيده ثراء .

فان ما يميز الماركسية (٢) كما يقول زيدا نوف في مؤلفه « حول تاريخ الفلسفة » ـ عن كل الفلسفات السابقة هو انها ليست علما يسود العلوم الاخرى ، وانما هي منهج ينطرق الى العلوم الطبيعية والاجتماعية ، منهج يغني نفسه بالنجاحات التي تحرزها العلوم في مجرى تطورها .

ان المفهوم الذي وضعته الماركسيه حول العلاقة بين النظرية والتطبيق يعني ان على البحوث الاجتماعية ان تسترشد بالنظرية العامة للمادية التاريخية ومبادئها . ثم عليها بدورها ان تخرج من دراسة المجتمع بما يضيف الى هذه النظرية ويغنيها .

---

١ ـ Ibid , P , 228

٢ ـ Ibid . P. 227

المراجع

(اولا) مراجع باللغة العربية :

١ ـ ارمان كوفيليه ، مقدمة في علم الاجتماع ، ترجمة السيد محمد بدوي وعباس احمد الشربيني ، دار المعارف .

٢ ـ انجلز « التفسير الاشتراكي للتاريخ » ترجمة راشد البراوي النهضة العربية ، ١٩٦٨ .

٣ ـ حسن شحاته سعفان ، اسس علم الاجتماع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٤ ـ جوزيف شومبيتر ، الرأسماليه والاشتراكيه والديموقراطية (الجزء الاول) تعريب خيري حماد ، الدار القوميه للطباعة والنشر .

٥ ـ صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق ، في الاشتراكية العربية (ماركس يدخل الماركسية) الدار القومية للطباعه والنشر .

٦ ـ عبدالباسط محمد حسن واخرون ، اسس علم الاجتماع ، مطبعة البيان العربي .

٧ ـ عبدالحميد لطفي، علم الاجتماع ، مؤسسه الثقافه الطبيعية اسكندرية .

٨ ـ كارل ماركس ، الثامن عشر من برومير ـ لويس برنابرت ، دار التقدم موسكو .

٩ ـ محمد فتحي الشنيطي ، الفلسفة الماركسية (اصولها الايديولوجية وتطبيقاتها الاجتماعية) ، دار المعرفه ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

(ب) المراجع الاجنبية :

1 - Blekhanov . The Development of Monist view of History , Moscow , 1956 .

2 - Bottomore and Maximilien (eds) , KARL MARX, Selected Writting in Sociology and Social Philosophy, (Rubel , Belican Book) 1963 .

3 - Cornforth . Science Versus Idealism , Lawrance and Wiskart , London , 1955 .

4 - Engles , Anti-Duhring , Moscow . 1955 .

5 - Engles , Dialictics of Nuture , Progress Publishers , Moscow , 1966 .

6 - Lenin , Collected Works , V . I . Foreign Languages. Publishing House . Moscow , 1962 .

7 - Lenin , Collected Works . V . 14 . Foreign Publishing House , Moscow , 1962 .

8 - Lenin , The Three Sources and the Three Component Parts of Marxism , Foreign Languages Publishing House , Moscow .

9 - Glezerman , The Laws of Social Development , Foreign Languages Publishing House , Moscow .

10 - Gurvitch , Traite de Sociologie , Tome Premir , Press Univer - sitaires de France , Paris , 1962 .

11 - Maciver and Page , Society , Macmillan and Co. L T D . London , 1950 .

12 - Marx , and Engels , The German Ideology , Progress Publishers , Moscow , 1964 .

13 - Marx and Engels , The Manifesto of th Communist Party , Foreign Languages Press , Peking , 1965 .

14 - Marx and Engels , Selected Works , V . I , Moscow , 1956 .

15 - Marx , The Poverty of Philosophy , Prgress Publishers , Moscow , 1966 .